برنامج أنيس مقدسي للأدب

مؤتمر قصيدة النثر الأول

بيروت: ١٩-٢١ /٥/٢٠٠٦

ندوة مستقبل قصيدة النثر

الأحد: ٢١/٥/٢٠٠٦

أحتاج عيناً ثالثة ترى الغيب

منذر مصري- سوريا

أحتاج عيناً ثالثة ترى الغيب

منذر مصري

عندما اتصل بي الدكتور ماهر جرّار، ودعاني للمشاركة في ندوة اليوم الثالث للمؤتمر المخصصة لبحث مستقبل قصيدة النثر العربية، أبديت بعض التردد، لدرجة أنه ظنني لا أرغب بالمشاركة. ولكن عندما حاولت إفهام عباس بيضون، بأني لست الشخص المناسب لهكذا دراسة، أجابني بذلك السؤال الذي يحار المرء مهما بلغت حجته كيف يرد عليه: (لماذا لا).

حقاً، لماذا لا، ولكن ذلك لن يحول دون ذكري الأسباب التي كانت تدفعني للتردد، وهي مثلها مثل كل شيء نبرر به أقوالنا وأفعالنا، أسباب خاصة داخلة بي، وأسباب أخرى خارجة عني عامة بالموضوع نفسه:

أسبابي الخاصة:

١- مشيراً إلى ظاهرة، كون عامة المشتغلين في نقد الشعر عندنا، هم الشعراء أنفسهم. عملاً ب: (أهل مكة أدرى بشعابها) فذلك يستدعي أول ما يستدعي السؤال ما إذا كان الشعراء حياديين عند الحكم على أنفسهم أو على نتاج أقرانهم؟ أو ما إذا كانوا مؤهلين، أو هل يمتلكون الحق!؟ فأنا، على سبيل المثال، يوماً لم أتنطع لأكون دارساً لحركة شعرية أو لجيل شعري! لأنه يوماً لم أعمل على جمع مقدمات، أو معطيات، أستطيع أن أستنتج بواسطتها خلاصة ما. وكنت دائماً أفتقد القدرة على إصدار أحكام، فلطالما آمنت ببراءة الجميع وصدقت بما يسوقونه من مبررات. أما عن كوني قد كتبت عدداً من المراجعات النقدية لمجموعات ولتجارب شعرية كنت قريباً منها بطريقة ما، فهذا شيء والقدرة على تقديم خلاصات أو تعميمات شيء آخر.

٢- كنت أهزأ، من بين الأشياء الكثيرة التي كنت أهزأ منها، من أن للشعر ملكة التنبؤ بالمستقبل، أو رؤية ما سيأتي في الغد، وتشبه الشعراء بزرقاء اليمامة أو كاهنة معبد دلفي، فيوماً لم أقرأ شعراً عربياً أو غير عربي بلغ به الخبل لأن يقول، سوف يحدث كذا، وتنبهوا من كذا، في المكان كذا، والزمن كذا. ذلك أني لا أصدق أن إنساناً عاقلاً، شاعراً كان أن غير شاعر، يمكن أن يدعي بأنه كائن استثنائي، خرافي، يملك المقدرة على معرفة الغيب.. كنت لا أصدق الأنبياء أنفسهم، فكيف أصدق نبوءات النسخ المزيفة عنهم. ما أستطيع الادعاء أني أعرفه، هو ما مضى، ما رأيته يعبر من أمامي، فقد كنت أردد قولاً لا أدري من قاله: (لا أكتب إلا عما رأيت وسمعت) رغم أنه قول أصلح لرواة القصص منه للشعراء.

٣- يحتاج البحث في مستقبل قصيدة النثر العربية، متابعة حثيثة، ومن ثم معرفة واسعة، للأنسال الجديدة التي تدخل مضمار قصيدة النثر في البلاد العربية وخارجها. الأمر الذي شفيت منه وما عاد شغلي الشاغل منذ زمن، فما أقوم بفعله اليوم هو أكثر ما يعنيني إن لم أقل كل ما يعنيني، أما عن حرصي على الاطلاع على ما يكتبه الآخرون، الأسماء التي أتابع تجاربها لأهميتها المؤكدة، والأسماء التي يتناهى لي بعض التصفيق لها وهي تدلف الساحة، الشعراء الجدد الذين يتواصلون معي، فلم يكن يوماً بدافع المقارنة والحكم. وقد يستغرب المرء كيف له أن يجد مفراً من إجراء المقارنات والتوصل إلى، إن لم يكن إلى أحكام، فليكن إلى آراء، إلا أنني في الحقيقة أفعل هذا لمنفعتي الشخصية، وبوجوه عدة، أهمها، أني أغذي به الحافز الذي أحتاجه للاستمرار والمتابعة.

الأسباب الأخرى:

١- ليس فقط لأني شفيت من حمى قراءة كل شيء، بل لأنه أصلاً لا يتوفر بين يدي ما يكفي لألقي نظرة متفحصة ولتكوين فكرة صحيحة عن واقع قصيدة النثر العربية. وهذا ما يمكن له أن يجعل من الكتابة في هذا الموضوع، إن لم يكن قفزة في الظلام، فهو وقوع في السياج الشائكة الكثيرة التي الكتابة باللغة التي ينطق بها ما يقارب الثلاثمائة مليون إنسان، بنسبة أمية عالية، ونسبة قراءة متدنية لدرجة فظيعة، يتوزعون على العشرين بلداً، تتصل ببعضها على شكل سلسلة ذات حلقات مغلقة، فما يكتب في الأردن لا يتخطى الأردن، فلا كتب ولا مجلات ولا صحف أردنية تدخل بلداً متاخماً كسوريا، وأغلب ما يكتب في سوريا لا يعرف إلا في سوريا، وحتى في داخل سوريا. كبلد اتصف بالاستقرار لعقود طويلة من السنين، ذي تطور اجتماعي وتقاليد ثقافية. نجد أن شعراء مدينة حلب، حتى أصحاب المجاميع الشعرية منهم، مجهولون في اللاذقية وحمص وأيضاً في العاصمة دمشق حيث يفترض أن يتجمع كل شيء، إلا إذا حدث وتمت معرفة أحدهم على نحو شخصي، خاصة بعد أن تعففت دور النشر الكبيرة جيدة التوزيع، عن طباعة كتب الشعر إلا للأسماء المستطيرة! وصار الشعراء يطبعون على حسابهم عدداً ليس كبيراً من النسخ، تضاءل في العقدين الأخيرين من ألفي نسخة إلى ألف، ثم إلى خمس مائة ثم إلى لا أكثر من مائتي نسخة!! يوزعها الشاعر على أصدقائه وأقاربه وعلى من يستطيع الوصول إليهم من شعراء في مدينته ومدن أخرى في بلده، وغالباً ما يكون من المتعذر إيصالها إلى شعراء بلد عربي مجاور، فكيف إلى بلد عربي يأتي في السلسلة على بعد خمس حلقات!! وأحسب أنه قد حدث للعديد من الشعراء أن اجتمعوا في مهرجان ما مع شعراء عرب آخرين من جيلهم أو من جيل سبقهم، وهم لم يسمعوا بمجرد أسمائهم، ثم إن كانوا قد سمعوا بهم سماعاً، فهم ليسوا على أي اطلاع على سوية نتاجهم. فأول مرة سمعت باسم علاء خالد

مثلاً في كان عند لقائنا في مهرجان كافالا في اليونان عام ٢٠٠٢، أما جرجس شكري المصري الآخر فقد عرفته فقط في مهرجان جرش عام ٢٠٠٤.. ولا أخجل إن قلت في ذلك المهرجان عرفت لأول مرة أن رئيس اتحاد الكتاب في المغرب هو الشاعر حسن نجمي، و لم أستطع أن أحدد ما إذا كنت قد سمعت باسمه في السابق أم لا.. في سوريا لا تستطيع أن تحصل على المجموعات الشعرية الهامة التي أصدرتها دار الجديد البيروتية، في الثمانينات والتسعينات، فكيف لك أن تحصل على أعمال لشعراء تونسيين أو جزائريين أو يمنيين، يوماً لم تقع عيناي لا في المكتبات السورية ولا اللبنانية على كتاب سوداني أو ليبي، والسؤال هو ألا يطبعون كتباً في السودان وليبيا والجزائر والصومال واليمن وقطر والبحرين على الإطلاق**!؟**. وهذا لا يقتصر على الشعر وحده، بل أيضاً الروايات والقصص القصيرة وحتى الكتب المترجمة، أما ما يصلنا من مجلات ودوريات ثقافية، لا أدري إن كانت توزع في أنحاء الوطن العربي كافة أم لا، فإنك حتى وإن قرأت قصائد لشاعر ما، فإنك سرعان ما سوف تنساه، وذلك لكثرة الأسماء، الداخلة الخارجة في ساحة الشعر. وهذا ما حدث لي عندما كتبت عن الشاعر العراقي الراحل رعد عبد القادر، فقد ظننت أن قصيدته التي أكتب عنها والتي كانت ضمن مقال لسعدي يوسف منشور في مجلة المدى أول عمل أقرأه له، مع أن عدداً من قصائده كان منشوراً منذ مدة ليس بعيدة، على الصفحة المقابلة لقصائد لي في مجلة نزوى العمانية.

٢- هناك الآن، لا بد من الاستدراك، مصادر أخرى متاحة للإطلاع والمتابعة، إذا كان لدى المرء الرغبة والوقت وجهاز كومبيوتر موصول بشبكة الانترنيت. مواقع ثقافية مثل موقع جهة الشعر الذي يشرف عليه الشاعر البحريني قاسم حداد، وموقع كيكا بإشراف، لا أدري بماذا أصفه، العراقي صموئيل شمعون، وموقع عراقي آخر هو (الإمبراطور) وهناك أيضاً عدة مواقع سورية جديدة مثل (الجدار) و (ألف) و(أبابيل) و(أوكسجين) هذه كلها يغلب فيها النتاج الشعري، إلا أن موقعاً ك (قصيدة النثر المصرية) الذي يشرف عليه الشاعر المصري عماد فؤاد يسمح على نحو استثنائي بالإطلاع الوافي على حال هذه القصيدة في بلد عربي كبير تأخر فيه ظهورها نسبياً عن لبنان والعراق وسوريا، حيث يتوفر به ملفٌ عن كل شاعر من سبعة وستين شاعراً وشاعرة من الأجيال الثلاثة الماضية للقرن المنصرم. كما أنه يتوفر على شبكة الانترنيت هذه عشرات المواقع الفردية والبلوغات لشعراء من كافة البلدان العربية.

٣- ما يربك هنا هو، ليس الكثرة فحسب، بل أيضاً مستوى النتاج، التراكم الكمي الذي يبدو وكأنه استطاع الهروب من حتمية أن التغير الكمي يؤدي إلى تغيير نوعي، وكأن ما يأتي لاحقاً لا يقوم على ما أتى سابقاً، أو كأن كلَّ شيء يبدأ بنفسه على نحو ما، ذلك أني التقيت شعراء شباناً كثيرين لا يعرفون توفيق الصايغ ولا شوقي أبي شقرا ولا عصام محفوظ ولا حتى أنسي الحاج، أما في سوريا فسليمان عواد الأب الروحي لمحمد ماغوط شبه نكرة، وإذا كان عواد شاعر ظهر في الخمسينات، فماذا يقال عن شاعر سوري آخر هو بدوره مجهول في بلده هو نوري الجراح نشر العام الفائت كتابه الثامن. رغم ما يعرف عني من حرص على رؤية الأشياء من الزاوية الجيدة، وتصديقي بأن الرسامين والشعراء والموسيقيين يشتهرون بفضل عدد من أفضل أعمالهم وليس بأعمالهم كلها، ورفضي لفكرة القراءة بهدف إصدار الأحكام والبحث عن أدلة، وذلك لحرصي بالمقابل على الاستمتاع بهذا الفن الذي وصم حياتي، أجدني غارقاً بشعور معاكس تماماً، أقرب للشعور بهدر

الوقت وإضاعة الجهد والأحاسيس، منه للمتعة والفائدة، وصولاً إلى الشعور بالإحباط والخيبة. أسماء كثيرة ومجموعات شعرية كثيرة كثيرة وقصائد كثيرة كثيرة كثيرة، نستطيع قراءتها هنا وهناك، لا تصنع سوى ذلك التراكم الذي لا يحتاجه أحد، وقليلها يستحق أن يتوقف المرء عنده، ويعيد قراءته محاولاً أن يبقيه في ذاكرته. ولكن، يأتيني صوت، أ ليس هذا هو الحال دائماً، أ ليس دائماً هناك تلك القلة التي يُعوَّل عليها بأن تقوم بصناعة الفرق**!**؟

٤- أحسب أن أي محاولة تبصرية لمعرفة مستقبل حركة أدبية ما، تحتاج إضافة لاجتهاد صاحبها، أن يتوفر عنده بعض المراجع والدراسات التي سبق وقدمت تصوراً، صغيراً أو كبيراً لموضوع البحث. وهنا مرة أخرى، تعترضنا إعاقة قاسية في بدن الحركة الشعرية العربية الحديثة، وهي عدم مواكبتها ليومنا هذا بحركة نقدية حقيقية، نظرية وتطبيقية. حيث أكتفي نظرياً بترجمة بعض المراجع والمنطلقات التي مهدت لقصيدة النثر عالمياً، مع محاولة بسيطة وساذجة لتأصيلها، باعتبار النثر العربي القديم والنص القرآني جذوراً لها. أما تطبيقياً فلم يزيد الأمر عن عدة كتب نقدية تطرقت للرواد على نحو أساسي، حيث رافقتهم حركة نقدية لافتة بالمقارنة مع من جاء بعدهم، الذين لم يحظوا في أفضل الأحوال سوى بمتابعات لمجموعاتهم الشعرية في الدوريات التي تصدر هنا وهناك، تجمع أحياناً في كتاب، وغالباً ما تهمل. ولكن منذ فترة وجيزة، نتيجة لهذا النقص وهذه الحاجة بدأت تظهر بعض المحاولات لرصد حركة الشعر العربي الحديث، ومن الغرابة أن ما اتفق على تسميته أنطولوجيات شعرية صدرت كلها بلغات أجنبية.

أسئلة المستقبل

انطلاقاً مما ذكرت، يمكن أن يرسل المرء نظره إلى مستقبل قصيدة النثر، في اتجاهين مختلفين، الأول: هل سيكون لقصيدة النثر مستقبل؟ والثاني: ماذا ستكون عليه قصيدة النثر في المستقبل؟ أي كيف ستكتب؟ وبأية أشكال ستوجد؟ وأحسب أن البحث في كلا الأمرين على تكاملهما الصوري، يشبه حقاً الرجم بالغيب، وخاصة في بلاد كبلادنا، لا أحد، حتى المنجمون، يستطيعون أن يخمنوا مستقبلها، والتي لم تجد في بحثها عن نقطة انطلاق إلا أن تعود القهقرى لنقطة الصفر. وإذا اعتبرت أن مستقبل قصيدة النثر العربية هو مستقبل الشعر العربي، فكثيراً ما قرأت، أن مستقبل هذا الشعر، يتوقف أساساً على مستقبل الإنسان العربي نفسه، الناطق باللغة العربية. ثم يأتي ذلك الاستنتاج، الذي لا تعيبه عموميته بالقدر الذي تعيبه شاعريته، بأنه ما دام هناك لغة عربية فسيكون هناك شعر عربي. ولكن ما نعتبره اليوم شعراً ونفكر بما يمكن أن يكون مستقبله، قد يختلف لدرجة يصير بها فناً من جنس آخر، باختلاف كبير في الطرائق والأدوات كما في الأغراض والمآرب، لا بل قد يأتي يوم ليس بهذا البعد كما يبدو، تزداد به عزلة الشعر وتزداد هامشيته، حتى ينقرض. عندها يمد رأسه ذلك السؤال الصفيق: ومن قال لك إن البشر، لا يستطيعون الحياة بدون الشعر. ففي العالم اليوم، يولد ويحيا ويموت الملايين من البشر، عرباً وغير عرب، محرومين أم مرفهين، متخلفين أم متحضرين، دون أدنى اعتبار لوجود الشعر، وخاصة بعد أن دفع به الشعراء ، لسبب أو لآخر، ليصير هذه النصوص المربكة التي يتعذر فهمها والتمتع بها وتقديرها إلا من قبل أهل الكار أنفسهم، أي أولئك الذين بدوافع جيدة أو سيئة هم الأقل مصلحة في هكذا عملية.

انتصار قصيدة النثر

لا بد من الاعتراف بذلك الشوط الذي قطعته قصيدة النثر العربية، من الخواطر الشعرية والنثر العاطفي إلى قصيدة تبدو وكأنها أصيلة متجذرة تنبت فروعاً متعددة وثماراً متنوعة، من الاتّهام والعداء والتحريم إلى الاعتراف والقبول والإباحة، وربما... الانتصار. هذا الانتصار الذي تبدى على عدة أصعدة، منها انتقال العديد من الشعراء الرواد لكتابتها، كما فعل يوسف الخال وأدونيس وشوقي أبي شقرا وعصام محفوظ في الستينات، ثم تبعهم في السبعينات شعراء كانوا مؤسسين على القواعد العروضية مثل نزيه أبو عفش وبندر عبد الحميد وقاسم حداد على سبيل المثال لا الحصر. بعدهم صارت قصيدة النثر الاختيار الأول لأفضل المواهب الوافدة إلى حقل الشعر. وبسبب انتشارها الشديد أذعنت لها أكبر حصون الشعر العمودي والتفعيلة، بعد حرب استنفذت فيها كل مخزونها من الذخائر الثقيلة، ومن اللافت أنه قد حدث هذا على نحو تنازلي، فمن اقام كتابها بالتخريب والخيانة، إلى الاكتفاء بتعييرهم بالتقليد والنقل، ثم لفتح الأبواب على مصراعيها لقصائدهم، ولو بدون تلك القدرة على تمييز الجيد فيها عن الضحل. فاتحاد الكتاب العرب في سوريا، الذي كان، حتى الأمس القريب، يرفض، بدوره كرقيب، الموافقة على طبع المجموعات الشعرية النثرية، ولو على حساب أصحابها، بات يصدر ضمن منشوراته ما هب ودب من هذه المجموعات. ومجلات كمجلة الآداب مثلاً، أو مجلة العربي الواسعة الانتشار ذاتها التي كانت تتحف قرائها بمخلفات القصيدة العمودية، صارت تقبل القصائد النثرية وتنشرها مع رسوم ملونة لأزهار وفراشات ووجوه نساء على صفحاتها، وصار المرء يقع على دوريات أدبية وملاحق ثقافية لا تنشر سوى قصائد نثرية. فعندما سأل جوزيف عيساوي عباس بيضون في برنامج (قريب جداً): (لماذا تطغى قصيدة النثر لهذه الدرجة على الصفحات الثقافية لجريدة السفير؟).. أجاب عباس بما معناه: (ماذا أفعل إذا كان لا يصلني سوى قصائد نثرية). وكذلك ما قاله حسن طلب لعبد الله السمطي: (بأنهم باتوا في مجلة إبداع لا ينشرون سوى نصوص قصيدة النثر). أما تلك الأنطولوجيات الشعرية التي ذكرت، التي إذا لم تكن مقتصرة على الشعراء النثريين، وتحاول بحيادية أن تعطي صورة واقعية عن تنوع الشعراء الذين يحتلون الواجهة الشعرية، فإن عدد شعراء النثر بينهم قد يصل إلى نسبة ٧٥%. ولولا الرغبة بإظهار بعض الاعتدال، وورود عدد من شعراء التفعيلة يقل عن أصابع اليد الواحدة بين ثمانية وثلاثين شاعراً تضمنتهم أنطلوجيا الشعر اللبناني الحديث التي أعدتها جمانة حداد باللغة الاسبانية، لكانت نسبة النثارين فيها ١٠٠%.

إلا أن هذا الانتصار السريع لقصيدة النثر، والذي جاء بعد حرب عُصابية بامتياز، استغرقت ما لا يزيد عن عقدين من السنين، هو الشبهة الأخطر التي تحوم حولها. حيث لم ينقض من الوقت ما يتيح لقصيدة التفعيلة الابنة الشرعية للقصيدة العمودية التقليدية التي عاشت قروناً أن تأخذ كل أبعادها، أو فقط أن تصل إلى نقطة قريبة، ما يكفي، من نهايتها، وكأنه رحنا نسمع صيحاتنا، عاش الملك قبل أن يموت الملك. ذلك ما أدى إلى عدم حسم السؤال حول شرعيتها، وأحقيتها، وهل جاءت ضمن السياق الطبيعي للشعر العربي أم أقحمت إقحاماً؟ وربما ببعض الظن، لضرب هذا السياق والتخريب عليه! أو هل جاءت استجابة لحاجة حقيقية لواقع حي معاش؟ الأمر الذي، رغم أي اعتراض، يمكن أن يفسر ويبرر انتشارها، أم مجرد تقليد أعمى لمنتوج حضاري غربي يكتسحنا مع ما يكتسحنا من أفكار ونظريات ومخترعات؟ لا دور لنا فيها سوى دفع كلفتها عشرات الأضعاف واستهلاكها. أو أنها في الحقيقة، مثلها مثل أيديولوجيات النخبة العربية كالماركسية والوجودية والليبرالية، تعبير عن تغرب هذه النخبة، وشكل من أشكال إصرارها على القطيعة والعداء بينها وبين محيطها!؟ فبقدر ما تفشت قصيدة النثر بين الشعراء بقدر ما انحسرت بين الناس. حتى

صار يقال إن جمهور الشعر اليوم لا يزيد عن عدد الشعراء أنفسهم، أو ربما يقل! أي أنه قد وصلنا لحالة يقتصر فيها استهلاك الشعر على منتجيه. سقاة يبيعون الماء في أحياء السقاة!! فأي بائعين وأي مشترين أسوأ من ذلك!؟ وهكذا صار يتضاءل عدد حضور الأمسيات الشعرية في المهرجانات الثقافية التي صار بعضها يقتصر على مشاركة شعراء النثر، إلى أعداد مخزية بالفعل، توازي ما ذكرناه عن أعداد النسخ التي باتت تطبع وتباع من كتبهم. وهكذا تبدو الأمور وكأنها تدور في حلقة مغلقة، شعر نخبوي، يخرج عن السائد ويقطع بصورة حادة مع الذائقة العامة للناس حوله، ومع قدرتهم على فهمه، فينفرط عقدهم حوله ويبتعدون عنه للحد الذي تنعدم فرصته في الوصول إليهم، رغب بهذا أم لم يرغب، ترفع عنه، أو قدم له كل ما أمكنه من تنازلات. حتى راح هذا الانتصار يبدو وكأنه القمة التي ليس بعدها إلا الانحدار منها، فما يأتي سريعاً يأفل سريعاً.

أجوبة للمستقبل

اليوم ما عادت قصيدة النثر، قضية. ما عادت ثورة أو مواجهة مع السائد. ما عادت خروجاً عن التقليد. نعم فقدت قصيدة النثر هذا التميز، هذا الشرف، صار هناك أناس لا يفكرون بالخروج عن شيء يكتبونها، صارت قصيدة النثر، مثل ما كانت عليه قصيدة العمود وقصيدة التفعيلة، تكتب إتباعاً وتقليداً، صارت بدورها سائداً أدبياً. منقبات يكتبن قصيدة النثر، هذا ما قرأته في مقالة عن ملتقى الشعر العربي الثاني الذي أقامته وزارة الثقافة اليمنية في صنعاء، بحضور أكثر من ٣٠٠ شاعر ومثقف عربي. حيث أهدى وزير الثقافة اليمني، الملتقى إلى روح الشاعر الكبير محمد الماغوط، محققاً بذلك، كما أعلن، ما طمحت إليه اللجنة المنظمة من هذا المهرجان، وهو :(الاحتفاء بالقصيدة العربية الجديدة، قصيدة النثر تحديداً). وهكذا وسط هذا الهرج الشديد، أشعر أنه صار محتماً علي أن أعيد التفكير بما سبق وقلته، في أن أفضل المواهب الشعرية الجديدة تختار لنفسها كتابة قصيدة النثر، فالأصح أنه ليس أفضل المواهب فقط تختار قصيدة النثر، بل أيضاً أكثر هذه المواهب تواضعاً وشحوباً باتت تكتب قصيدة النثر، حيث يصح أن الكم التراكمي ذاك، هو من عمل أولئك الذين يكتبونها لظنهم أن تحررها من الضوابط والقيود يعني سهولتها. وهذا، ربما أحد أقرب التفاسير لغلبة الرداءة على مشهد الشعري العربي الراهن.

ولكن هل هذا يعني أن الشعر العربي. في مسيرته الشكلية، إذا سمحنا لأنفسنا في تقسيمها إلى الأربع مراحل التالية: من البحور الكاملة والقافية الموحدة، إلى البحور المنقوصة والقافية المتنوعة، إلى البحور الخافتة الإيقاع وعدم الحرص على القافية، قد وصل إلى محطته الأخيرة وهي قصيدة النثر، غير الموقعة وغير المقفاة. أحسب أن أي جواب على هذا السؤال، يحتاج أن يأخذ باعتباره عدة وقائع، يمكن أن تصل إلى مرتبة الحقائق في ميدان الأدب:

١- لم يصل أي نشاط إنساني، علمي أو فلسفي أو فني، إلى ما يمكن تسميته المحطة الأخيرة. وأحسب أن القبول بتلك الفرضية اليوم، هو مجارة شكلية للأحكام التي درجت مؤخراً، بنهاية الفلسفة، أو نهاية التاريخ، أو حتى نهاية العالم. الأمر الذي من الصعب على البشر الحياة على أساسه، والقبول به كحتمية.

٢- هناك قاعدة معروفة في الفن، وهي عودة القوالب المحددة، ولو بأشكال مختلفة، بعد كل مرة يتم تحطيمها والإطاحة بها. أي أنه بعد كل تحرر تأتي قوانين جديدة ضابطة للعملية الفنية. فكما أن هناك ميلاً غريزياً عند البشر للحرية والانفلات هناك حاجة بشرية ملحة للانضباط والواجب.

٣- وبغض النظر عما إذا كان يجب أن نهلل، نحن شعراء قصيدة النثر، لكونها المحطة الأخيرة للشعر العربي، الآن أم لاحقاً، بحيث يصدق وعدنا بأنها تمثل مستقبل هذا الشعر، فإن قصيدة النثر اليوم ما عادت قصيدة واحدة، وما عادت نثريتها جنساً شعرياً بحد ذاتها.فقد تباينت وتفرقت لأنواع عديدة من القصائد، كل منها له اتجاهات ومعايير فنية مختلفة، فمن القصيدة اليومية ذات اللغة المباشرة وغير المنمقة إلى القصيدة الذهنية ذات اللغة المجردة، ومن القصيدة الحسية المادية إلى القصيدة التأملية والفلسفية، ومن القصيدة السردية التي تروي وتصف، إلى القصيدة المكثرة من البديع والمحسنات، ومن قصيدة ذات وحدة موضوعية إلى قصيدة تبدو وكأنها بلا موضوع...

٤- لا يدل النتاج الشعري الجديد، عموماً، على بذل الجهد اللازم في حقل كتابة الشعر اليوم، وكأن قصيدة النثر قد وصلت، كأختها قصيدة التفعيلة، وبفترة زمنية تعادلها قصراً، إلى استنفاذ أدواتها وأساليبها. بعد أن عُممت هذه الأدوات والأساليب، لتنتج قصيدة غير شخصية على الإطلاق، ذات مواصفات موحدة ومعروفة. مما أفقدها ذلك التنوع المثير الذي كانت قصيدة النثر، في تحررها من التقاليد المنهكة في الشعر، تعد به. و بات من غير المتوقع أن يحظى المرء بتجربة ذات خصوصية لافتة، في نتاج الأجيال الجديدة لهذه القصيدة. أما الأسماء المكرسة، من الجيل الثاني والثالث فقد بدأت بنشر أعمالها الشعرية الكاملة، كإيذان بقرب إكمالها لدورتها الإبداعية. فلا تجارب جديدة تطرأ في مختبر قصيدة النثر، وتلك السردية التي هي الآن السمة الأشد حضوراً في قصيدة النثر اليوم، والتي كثيراً ما اعتبرت المطب الأخطر لقصيدة النثر، ما هي إلا عودة إلى أصول قصيدة النثر الأولى، ومن السهولة بمكان أن يجدها المرء في النتاج الشعري الباكر للرواد. وكأن البعض قد تنبه الآن فقط، بأن اختيار النثر لكتابة الشعر، كان منذ البداية اختياراً لخصائص النثر المعروفة والمتفق عليها بين الجميع، كالسرد والوصف والحوار، وإن غاية التحرر من الوزن والقافية وأنواع البيان والبديع كانت وما تزال لإحكام اللغة وللسدادة في انتقاء الكلمات والدقة في تأدية المعنى.

٥- ويبقى تساؤل أخير، ما العمل؟ هل يمكن مواجهة حالة انحسار شعبية الشعر، بالطلب من الشعراء إجراء تسويات بينهم وبين الناس الذين يكتبون لأجلهم. أي بإجراء ما ينبغي من تغييرات في طرائق كتابتهم تساعد على تقبل الناس لأشعارهم!؟ والسؤال: كم من الشعراء يرضى بذلك!؟ أو من جهة أخرى، القيام بالمبادرات المتنوعة لتعريف الجمهور الأوسع من الناس، على ماهية الشعر، وأهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه في حياتنا؟ كتقديم قراءات شعرية خارج القاعات والمنابر التقليدية، مثل الحدائق والمقاهي، وبطرق مبتكرة تجنب الجمهور الضجر الذي ينتابه من طريقة القراءة المعروفة. الاحتفاء بالشعراء وإطلاع الناس على نتاجهم وسيرهم الحياتية بطرق غير نخبوية، التأكيد على حضور الشعر الجديد في المناهج المدرسية منذ المراحل الأولى، زيادة الحضور الشعري في وسائل الإعلام، تشجيع نشر كتب الشعر وتوزيعها واقتنائها، ولكن السؤال مرة ثانية، كم يجدي كل ذلك إذا كان السياق الاجتماعي والثقافي يمضي دون أن يلوي على شيء، في الاتجاه المعاكس.

_____ اللاذقية ١٥/٥/٢٠٠٦